

(١)

رمضان شهر المراقبة الذاتية وصناعة الضمير الحي

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : { إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَعْفَرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

فإن شهر رمضان المبارك بما تضمَّنه من عباداتٍ وقرباتٍ وأعمالٍ صالحةٍ مدرسةٌ تقوِّم السلوك وتُهدب الأخلاق ، وتجعل المسلم في أعلى ما يكون من الأخلاق الفضلى والمثل العليا ، يقول ربُّنا سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } .

فالصيام يربي النفس على مراقبة الله (عز وجل) في السر والعلن ، حيث يغرس في نفس الصائم الصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى ، ويعلمه قوة الإرادة ، وضبط النفس ، ففي كثير من الأوقات يكون الطعام والشراب بين يدي الصائم بعيداً عن أنظار الناس ، ومع ذلك يمتنع عن تناولهما خوفاً من الله (عز وجل) وخشية منه سبحانه ، وعلمه بأن الله تعالى يراه ، فيزداد إيمانه فلا يخاف غير الله ، ولا يخشى سواه ، ومن هنا قال الحق سبحانه في الحديث القدسي : (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، يَدَعُ الطَّعَامَ ، وَالشَّرَابَ ، وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي) .

فالصائم حين يقضي نهار رمضان ممتنعاً عما أحله الله له من الطعام والشراب والجماع يجب أن يصاحب ذلك امتناع عن كل ما حرم الله ، فهو يستشعر دائماً

(٢)

بمراقبة الله تعالى له ، ويحرص على أن يكون صومه كما أراده الله تعالى (إيمانًا واحتسابًا) فلا يريد أن ينقص إيمانه بمعصية ، ولا يضيع عليه أجر ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا) ، قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : (أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا) .

إن الصائم الحق يظهر أثر صيامه في سلوكه وتعامله مع الناس ، حيث إن الصيام يُعوِّد صاحبه على ضبط النفس ، والسيطرة عليها ، والقوة على الإمساك بزمامها حتى يتمكن من التحكم فيها ويقودها إلى ما فيه خيرها وسعادتها ، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، فإذا أطلق المرء لنفسه عنانها أوقعته في المهالك ، وإذا ملك أمرها وسيطر عليها تمكن من قيادتها إلى أعلى المراتب وأسنى المطالب ، وهذا لا يتحقق إلا لمن صام صومًا حقيقيًا ، مستشعرًا عظمة ربه بذلك ، وقد صامت بطنه وفرجه ولسانه وجميع جوارحه عن كل ما حرم الله (عز وجل) .

إن مراقبة الله تعالى من أهم القيم السامية والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام ، والمراقبة تعني : دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه ، مستحضرًا قول الله (عز وجل) : { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } .

والمراقبة طريق الإخلاص الذي هو أساس قبول العمل عند الله (عز وجل) ، وقد حثنا الله تعالى على مراقبته في كل أحوالنا وتصرفاتنا ، فقال سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ

(٣)

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ، وقال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} .

فإذا راقب الإنسان ربه في كل أحواله انضبط سلوكه وتصرفه ، وحسن عمله واستقامت حياته ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء أثنوا عليه أم لا ، فلا يظلم نفسه ولا يظلم غيره ، حتى وإن غابت عنه رقابة البشر ، لأنه يدرك أن الله تعالى معه حيث كان في السفر أو الحضر ، في الخلوة أو في الجلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، فمراقبة الله تعالى تعصم الفرد والمجتمع من الزلل ، وهذه هي التقوى في أبعث صورها التي هي ثمرة الصيام ، والتي أوصى بها النبي الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سيدنا أبا ذرٍّ حين قال له : (أوصيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ).

وقد عبر النبي (صلى الله عليه وسلم) عن المراقبة بالإحسان كما ورد في حديث جبريل (عليه السلام) حين سأله قائلاً : (فأخبرني عن الإحسان؟) ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) ، فمن علم أن الله يراه حيث كان ، وأنه مطلع على باطنه وظاهره ، وسره وعلانيته ، واستحضر ذلك في خلواته ، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر ، فمراقبة الله تعالى هي ثمرة علم الإنسان بأن الله (عز وجل) ناظر إليه ، رقيب عليه ، مطلع على عمله ، سامع لقوله في كل وقت وحين ، قال تعالى : {أَلَمْ يَعْلَمُوا بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} ، والله درُّ الشاعر حيث قال :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوتُ ولكن قل عليّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً	ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ
ألم تر أن اليوم أسرعُ ذاهبٍ	وأنَّ غداً للناظرين قريبُ

(٤)

وتلك منزلة الإحسان العظمى ، وثمره المراقبة في شهر الصيام ، قال تعالى : {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}.

وقد خَرَجَ ابْنُ عُمَرَ (رضي الله عنهما) فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُ لَهُ ، وَوَضَعُوا سَفْرَةَ لَهُ ، فَمَرَّ بِهِمْ رَاعِي غَنَمٍ ، فَسَلَّمَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : هَلُمَّ يَا رَاعِي ، هَلُمَّ ، فَأَصَبُ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ ، فَقَالَ لَهُ : إِي صَائِمٌ ، فَأَرَادَ ابْنُ عُمَرَ أَنْ يَخْتَبِرَ أَمَانَتَهُ وَتَقْوَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَارِّ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ تَرَعَى هَذَا الْغَنَمَ ؟ فَقَالَ لَهُ : أَيُّ وَاللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَخْتَبِرَ وَرَعَهُ : فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هَذِهِ فَنُعْطِيكَ تَمَنِّهَا وَنُعْطِيكَ مِنْ لَحْمِهَا فَتُفْطِرَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي بِغَنَمٍ ، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ : فَمَا عَسَى سَيِّدُكَ فَاعِلًا إِذَا فَقَدَهَا ، فَقُلْتَ : أَكَلَهَا الذُّبُّ ، فَوَلَّى الرَّاعِي عَنْهُ وَهُوَ رَافِعٌ أُصْبَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ : أَيَّنَ اللَّهُ ؟ فَجَعَلَ ابْنُ عُمَرَ يُرَدِّدُ قَوْلَ الرَّاعِي ، وَيَقُولُ : فَأَيَّنَ اللَّهُ ؟ فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَى مَوْلَاهُ فَاشْتَرَى مِنْهُ الْغَنَمَ وَالرَّاعِي فَاعْتَقَ الرَّاعِي ، وَوَهَبَ لَهُ الْغَنَمَ " .

على أن هناك فرقا بين مراقبة الخالق ومراقبة المخلوق ، فمراقبة الخالق هي مراقبة من لا يغفل ولا ينام ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وكم يحتاج المسلم إلى أن يربي نفسه على مراقبة الله دائما ، والعارفون يقولون : (لا يحسن عبد فيما بينه وبين الله إلا أحسن الله فيما بينه وبين الناس).

والصائم الذي يراقب ربه في صلاته وصيامه وقيامه وركوعه وسجوده يجب أن يراقبه تمام المراقبة في عمله وإنتاجه وسائر تصرفاته ، فكثير من الناس يتقن عمله ويجوده إن كان مراقباً من رئيس له ، أو قصد به تحقيق غايات له ، أو سعى إلى السمعة والشهرة ، لأنه يفتقد المراقبة الداخلية التي تجعله يؤدي عمله بإتقان في كل الحالات

دون النظر إلى الاعتبارات التي اعتاد بعضهم عليها .

وكما أن شهر رمضان يعلمنا المراقبة الذاتية كطريق من طرق الإصلاح للنفس والمجتمع ، كذلك يساعد على صناعة الضمير الحي اليقظ الذي يخاف من الله (عز وجل) ويسعى لتحقيق مرضاته ، حتى إذا غابت عنه رقابة البشر وهمت نفسه بالحرام والإفساد في الأرض تحرك ضميره ؛ فيصده عن كل ذلك ويذكره بأن هناك من لا يغفل ولا ينام ، قال سبحانه: { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } ، وقال تعالى: { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } .

بهذا الضمير الإنساني اليقظ يستطيع الإنسان تأدية العبادات على الوجه الأكمل ، فتجد صاحبه محافظاً على العبادات والطاعات ، والذكر ، وقراءة القرآن ، وبه ينضبط السلوك والتصرفات ، وتُحفظ الحقوق وتُؤدى الواجبات .

ولقد ربى النبي (صلى الله عليه وسلم) أتباعه على يقظة الضمير ومراقبة الله (عز وجل) ، فقد أتى رجلاً إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يختصمان في قطعة أرض ليس لأحدٍ منهما بينة ، وكل منهما يدعي أنها له ، وارتفعت أصواتهما ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا) ، عند ذلك تنازل كل منهما عن دعواه؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد حرك في نفوسهما الإيمان ، وارتفع بهما إلى مستوى عالٍ من يقظة الضمير والتهذيب الخلقي ، فكان ذلك حاجزاً لهما عن الظلم وأكل الحرام .

أما إذا مات الضمير وانعدمت المراقبة لله (عز وجل) نتج عن ذلك فساد في

(٦)

الأخلاق والمعاملات ، وكثير من جوانب الحياة ، لذا وجب علينا جميعاً أن نراقب الله تعالى ، ولنحذر أن نكون أجساداً بلا ضمائر حية ، حتى تنزل علينا رحمات الله تعالى ومغفرته في هذا الشهر الكريم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسوله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

من الصور السلبية التي تدل على موت الضمير وعدم المراقبة لله (عز وجل) :
الغش بجميع صوره وأنواعه ، فهو داء عضال وآفة خطيرة ، لا يقتصر خطرها على الفرد فحسب ، بل يمتد خطرها إلى المجتمع كله ، لأن الغش مظهر من مظاهر الكذب ، والكذب أمانة من أمارات النفاق ، لأن الغش صناعة لا يحسنها إلا المنافقون الكذابون ، وهو محرم بإجماع المسلمين ، وصاحبه ليس على طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا على هديه ، حيث يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ غَشَّأَ فَلَيْسَ مِنِّي) .

وكما يكون الغش في النوع والجودة بإخفاء العيب الموجود في السلعة ، يكون أيضاً في المقدار وتطيف الكيل والميزان ، فقد أمرنا الحق سبحانه وتعالى بإقامة الوزن بالقسط ، فقال (عز وجل) : {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} ، فمن تلاعب بالكيل والوزن توعدده الله تعالى بالويل والخسران ، فقال سبحانه : {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} ، فالواجب على البائع أن يصدق في بيعه ، وأن لا يخدع ولا يغش

(٧)

ولا يخون ، بل يكون إخباره صحيحاً صدقاً ، فمن صدق في بيعه وشرائه نال الأجر العظيم والثواب الجزيل، ويكفيه شرفاً وفخراً أن ينال الجنة بفضل الله - تعالى - ورحمته ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ ، وَالصَّدِيقِينَ ، وَالشُّهَدَاءِ) .

ونحن بصدد امتحانات نهاية العام لأبنائنا الطلاب نوكد أننا بحاجة ماسة بتذكير أبنائنا وبناتنا طلاب العلم ، والقائمين على العملية التعليمية بفضل العلم وآداب تحصيله ، وبيان حرمة الغش بكل صورته وأشكاله ، فالغش في الامتحانات فساد كبير ، وتزوير وتدليس ، وإعطاء شهادة أو قيمة لمن لا يستحق على حساب من يستحق ، وهو مما يجعل بناء الفرد هشاً لا قيمة له ، ويدمر المجتمعات بقتل الكفاءات وتقديم غيرها عليها ، كما أنه يورث الأحقاد والضغائن ، ويفتح أبواباً كثيرة من الفساد ، ونؤكد أن العواطف في العلم تفسده ، ولا تحقق تكافؤ الفرص ، بل هي وبال على الأسرة وعلى المجتمع .
إن مراقبة الله (عز وجل) هي المخرج مما يعانيه المجتمع ، فإنه من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسان حارساً يحرسه ، أو مراقباً يراقبه ، وحتى لو فعلنا ذلك فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه ، لكن من السهل أن تُربى في كل إنسان ضميراً حياً ينبض بالحق ويدفع إلى الخير لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم .

لذا وجب علينا جميعاً وخاصة ونحن في شهر رمضان أن نحیی ضمائرنا بتقوى الله تعالى ، ومراقبته ، حتى تنزل علينا رحمة الله ومغفرته .

**فاللهم حسن أخلاقنا وارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة
واجعلنا من عبادك السعداء المقبولين**